

العدد السابع

تموز ( يوليو ) ١٩٥٤

السنة الثانية

No. 7 - Juillet 1954

2ème Année

# الآداب

مجلة شهرية تعنى بسؤال الفكر  
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون ٢٤٥٠٢

AL-ĀDĀB REVUE MENSUELLE CULTURELLE  
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085  
Tél. 24502

أصحاب الامتياز  
شربل ادرسي - بروج عثمان

المدبر المسؤول: بروج عثمان  
رئيس التحرير: الدكتور شربل ادرسي

Directeur : BAHIJ OSMAN  
Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISSE

يوم الى من توقعه المصادفات في قبضتها. وليس من بأس، في أن نغاني الأزيمة، قبل ان تكتمل عناصرها فينا، وليس من بأس إن تفجرت المأساة بكل عنفها في نفوسنا. أوليست هي التي تمهد لنا درب الحياة الأصيلة المقبلة في هذا المفترق من الدروب؟

لكنني سأكتفي بصورة المأساة وحدها دون الدروب، فأنا لم أقصد الى حل مشكلة بقدر ما اردت ان اضع مشكلة وأن أثير تساؤلاً. أنا اكتفي أن أعفي قارئ اليوم وحول رأسه إشارة استفهام!

وبعد فهل للانسان الحديث من مأساة؟ وأين هي تلك الأزيمة الفاجعة التي يشكو منها؟ انا اعرف ان الشكوى رافقت كل العصور حتى ليخيل

## من «فاوست» الى «هملت» مأساة الإنسان في الحضارة الحديثة

بقلم الدكتور مصطفى

إليّ أحياناً ان التاريخ كله ليس أكثر من آهة متصلة. وليست هذه هي المرة الأولى التي يطفح فيها القلق واليأس ويجرف الناس، فقديماً شكّا الفيلسوف الفرعوني والكاتب الفينيقي، وشكّا سقراط وشكّا ديوجين والرواقيون.. وكثيرون بعدهم قبل المعري وبعد المعري قالوا معه:

أنى الزمان بنوه في شببيته فسرهم وأتيناها على هرم

« فكل من تلقاه يشكو دهره » وأمس، في اليوم التالي لمركة (واترلو) سنة ١٨١٥ سجل (لامونيه) الأسطر التالية: « إن الجنس البشري بكامله يمشي بخطى حثيثة الى الهلاك. إنه في النزاع الأخير كذلك الجريح المسكين الذي لا يوجب له شفاء. إنه يتخبط في دمه، فكثرة الأخطاء في حضارتنا وقوى

« منذ اسابيع أذيع في الناس خبر، مر في عتمة الأخبار، ولعلك قرأته مصادفة وطويت الجريدة. ولقد مر في هذا الخبر « اسم لعل الغلائل فقط يعرفونه: « الدكتور اوبنهايمر » صاحب « القنبلة الذرية الاولى. ولقد ذكر معه أن الرئيس ايزنهاور « أمر بتطويق الرجل وبأن يحبس عنه كل سر من اسرار الذرة « المتفجرة وقالوا: إنه أضحى خطراً... منذ استيقظ ضميره! « لقد كان العبقرية الكبرى بعد اينشتاين في العالم الحاضر، كان « (فاوست) المتطلع الى كل شيء بأي ثمن... منذ سنوات. أما « (اليوم فهو (هملت) أتعرف هملت؟! »

ترددت طويلاً قبل ان افرض على نفسي هذا الموضوع،

خشية ان اكون كالمأسوف على فروسيته (دون كيشوت) احارب الوم وأطعن بالرمح الحشي اشباحاً تخلقها لي عيناى. وخشيت أكثر من هذا ان

لا يكون للمأساة التي يتخبط فيها الانسان الحديث من صدى في بلدي، فأين نحن من الحياة الحديثة ونحن لما نزل عند عتبة الهيكل؟ وأين منا افراحها العرمة إن كان لها من افراح، ومأسيتها الساحقة إن كان لها من مأس، ونحن بعد على هامشها نجتو ما تبها وننعم بنتاجها ونترك لغيرنا عبء الابداع والخلق، ونشوة الفرحة البكر عند ارتياد النبع والصرخة الدامية عند الانهيار؟

على ان قصة الدكتور اوبنهايمر فجرت المأساة لكل عين.. وأما بلدي فسيعرف اليوم او غداً هذه المأساة. إن الحياة الحديثة التي تتسلل حتى الى الصحارى العربية ستفرض يوماً ما مشاكها. والآلة التي تدخل ارضنا صماء بكها ستتحدث ذات

الزمن التي لا تقهر تجررها حتماً الى الغرق » وأخيراً اما ارتفع اليأس اليوم وارتفع « العبث » ليصبعا عقائد وفلسفات الوجود؟ لا شك ان الشكوى الدائمة ميزة إنسانية . والانسان هو الحيوان الوحيد القلق لأنه بعكس جميع الكائنات يحاول دائماً ان يفوق ذاته . وما شكواه غير دليل على تطلعه الدائم الى ما فوقه ؛ أو على الأقل الى انسان آخر جديد ! على اني اعتقد ان عصرنا الحالي من العصور النواذر التي فتكت بها الأزمة في العمق والانتساع والشمول فتكلاً يستحق ان يرتفع بها الى مرتبة المأساة ! لقد مر بالانسانية كثير من الأزمات دون شك ولكنها كانت تصيب القطيع البشري ككتلة ، لا الانسان الفرد الشاعر بذاته ، كإنسان اليوم . وقد أوجدت الحضارات السالفة فكرة العالم الآخر فاستطاعت إيجاد شيء كثير او قليل من التوازن مع مساويء هذا العالم . كما ابتكرت احياناً أمل « المسيح » ( المنقذ ) أو المهدي المنتظر فتركت كوى الأمل مفتوحة للناس ، ولكن الانسان الحديث يعيش الى حد كبير دون امل . لا ثقة له بعالم أفضل ينتظره ولا بمهدي يقلب له الأرض فردوساً ! إنه في قدره اليأس أشبه بأبطال المأساة اليونانية ؛ أشبه بأوديب أو هرقل أو ديدال يعرف مصير ويراها ويعرف في الوقت نفسه ألا مفر من الاغناء على سكين القدر !

وينعت « بوتراند رسل » هذا الموقف الانساني اليوم بكلمة « جنون العصر » كما سميت السويداء في مطلع القرن الماضي بمرض العصر . ويسميه احياناً : « جنون الانتحار » لأن الناس في رأيه في الشرق والغرب « يرون التفتيش عن التعاسة والشقاء أكثر سهولة من البحث عن السعادة الحقيقية » . ولكن هذا الجنون قد شاع لدرجة لف بها كل شيء وتسرب حتى الى الحياة العادية . وشرب الناس من نبعته وسيشربون ايضاً كما اضطر الملك العاقل في الحكاية ، ان يشرب بعد ان شرب شعبه ، من نبعة الجنون !

وإننا لنستطيع ان نتتبع مظاهر المأساة الانسانية القائمة في كل خالصة من حياة الناس . وحين تناولتها الأقلام ، في العام الماضي ، بمؤتمر جنيف تبين انها اصبحت حقيقة يرتجف لها مخبر العالم كما يحس بها حلم المصلح وتقطر من افلام المفكرين فلسفة سوداء كما تنحدر عن أيدي الفنانين ادباً قلقاً وتصويراً متبرداً وموسيقى ثائرة !

دعونا نبدأ بالأدب لا لأنه ألصق بالنفوس وأقرب الى

رعشة القلب فصحب ولكن لأن الادباء ساهموا كآية فئة اخرى إن لم يكن أكثر من أية فئة اخرى في خلق هذا الجو من السلبية واليأس الخيم .

ليس فينا من لم يقرأ قليلاً او كثيراً من « الأدب الأسود » وليس فينا من لم يسمع عن قرب او بعد بتلك الحوصمة المتصلة التي تكافح بها بعض المذاهب ذلك الأدب وتدعو الى حرقه لكثرة ما يندفع الشباب كالذباب النهم حول موارده وما يعانون في نشوته من ألم قد ينتهي الى الجريمة او الى الانتحار ولى انكماش في مثل ( نرفانا ) الهنود او إلى استسلام رخيص لا يبالي بشيء !

وابطال هذا الأدب الاسود ليسوا بالقلائل ولا بأصحاب الفكر الضعيف وإني لأراهم مواكب طويلة تسكر ( أو تسمع لست ادري ) إبداع هذا العصر : هذا فراتز كافكا ( التشيكي ) تقرأه فما تزال تدخل معه من عتمة إلى عتمة ومن مبهم إلى مبهم آخر لا ينقضي ، وتخرج من قراءته دون ان تنتهي إلى شيء ولكنك تحس فجأة انه احتقر في اعماقك هوة رهيبة وانه وضعك وجهاً لوجه امام القوة المجهولة التي تسحقنا فلذة فلذة في عبث حقيير غريب . هذه خلاصة ما يريد قوله في كتابه ( سد الصين ) وفي ( الدعوى ) و( القصر ) ويصل به الامر في قصة ( المسخ ) إلى ان يتصور في أفق ذات صباح فاذا هو قد مسخ حشرة كالبعش ما تكون الحشرات وإن كان ما يزال له عقله الذي يعي وقلبه الذي يجب ونفسه التي ترضى وتغضب . ولا تريد القصة عن ان تروي ذبول العواطف في قلب الأم والأخت والأب حتى تنتهي الحشرة إلى موت حقيير سخيف . وتساءل نفسك في النهاية : أترأه كان يتحدث عني؟ عن هذه الحشرة البشعة المهمة فوق هذا الكوكب !

وننتقل إلى سارتر من فرنسا . إنه يعرض وجهاً آخر من المأساة الانسانية . ليست مأساة القدر ولكنها مأساة الوجود نفسه ، وجودنا الذي لا قيمة له والكون الذي لا معنى لقيامه فان شعورنا بالوجود أثار فينا ما ثار في نفس انطوان روكانتان « بطل سارتر » امام شجرة الكستناء : ( الغثيان ) « ... لم يتروكني الغثيان ولا اعتقد انه تاركني وشيكاً . ولكني لا أقبلي منه اي شيء . إنه ليس بمرض ولا بضيق عارض . إنه انا » وقيمة سارتر كما يقولون هي في انه اعطانا نظرة وقيماً تنطبق مع عالم الشهادة هذا ومع إنسان هذا العصر ، ومع يأس الفكر المعاصر . وإذا كنا نراها بأشكال مختلفة في ( الأيدي القدرة )

و ( الذباب ) او في ( طرق الحرية ) فان « ماتيو » يظل دوماً البطل النموذجي لها .

ونقفز إلى أمريكا . فنلقى على الطرف الآخر من المحيط صورة اخرى للمأساة لدى ما يسميهم النقاد بـ « الهدامين » و « الجيل الهالك » ولكنهم مع هذا نالوا، جوائز نوبل للآداب . ومنهم لويس ومنهم فولكنر .

فأما سنكار لويس فالمأساة عنده هي جحيم التشابه والتجانس

الذي انحطت اليه الحياة الحديثة . كأن الآلة قد نشرت رداءها الداكن على ملايين البشر اليوم فاذا هم قطيع لا يدري ما يريد ولا اين يسير او كأنها ابتلعت شخصياتهم وصهرتهم في قوالب تخرج كالدمى بالملايين من المعامل لتحقق حركات رتيبة متائلة لا تستطيع منها فكاكاً . وفي قصة (بابيت) يقدم لويس

نموذجاً للانسان- الآلة : رجلاً اجتمع له الثراء والرفاه والنجاح في العمل ولكنه لا يستطيع التخلص من ابسط عاداته : إنه عبد ! لا يستطيع ان يقلع عن التدخين ولا ان يخرج للنزهات التي يجلمها بل ولا ان يغير المكان الذي يلقي به شفرات حلاقته ! برنامج حياته اليومي رسم مرة واحدة وإلى الأبد ! كحياة الكثيرين حولي وحولك !! والنصيحة الوحيدة التي يقدمها لابنه قوله : « إني لم استطع طول حياتي ان افعل ما أريد فاذهب يا بني واصنع ما تريد » . وكل ابطال سنكار لويس من هذا النوع الذي يريد ولا يستطيع لان الحياة الآلية تلتهمه : « كارول » التي تحاول في قصة ( الشارع الرئيسي ) ان تحطم التقاليد . « آرو سميت » العالم المثالي الذي يحاول تخليص العالم من التفاهة والجشع . « غانترى » ، « نيكروز » وغيرهم ... كلهم .

وغير بعد هؤلاء لماماً ، كتقبيل الفراشة للورد ، بفولكنر الذي يرى ان البشر منفي على هذه الأرض ويعرض من مأساه لنضال الانسان المرعب ضد الفناء ولكنه يتركه دوماً حطاماً دون امل . وليس من بطل من ابطاله يحاول ان يتعرف سر شقائه لأن هذا العالم برأي فولكنر كان وسيظل شراً لا يدرك .

وتقف لحظة عند « جيد » الذي رأى ان لعنة الانسان الحديث انه لا يجيا ، ولا يتذوق الحياة ، فجعل كل رسالته الدعوة

الى التجربة والى المعاناة . إنه يصم اذنيه عن سماع كآبة الانجيل « ربنا نحن من التجربة » ليدعو الى التجربة الروحية والأرضية والفكرية على السواء . ويألم ان ينتظر عند الباب لا يدخله وامام الثمرة الحرام لا يذوقها والأفق يصيبه مجهوله فلا يقتحمه ! آمن ان المتعة الكاملة بالحياة هي نسيج وجودنا . إنها ليست



### مأساة الانسان الحديث

« بنفي له ان يضحك ووجهه الى الارض » كامو- من مسرحية «العادلون»  
بريشة ادينا سيسكو

خطيئة ولعنة كما كانت عليه تجربة اوسكار وايلد وفيرلين وبودلير وليست وسيلة للمعرفة وللوصول الى الحقيقة كما جعلها غوته ولا بحثاً عن المثل الأعلى او المطلق كما هي عند « هولدرن » و « رامبو » بل هي وجودنا الانساني الحي . . وهذا كل المأساة ! ولقد يمكن ان نذكر هنا عدداً كبيراً آخر من الأدباء . « دوسباسوس » الأمريكي ، و « كامو » صاحب ( خرافة سيسيفوس ) وتزفايغ الذي بشر بالقلق والشيطان حتى مد له الشيطان أنشودة الانتحار ، ولكن لا بد ان ننتقل الى لوت آخر من ألوان التعبير : الى التصوير . وأكتفي قبل ان نخوض في بيكسو وماتيس وقبائل الأطياف والألوان ان أسجل تلك الفردية المفرقة التي تجتاح الأدب المعاصر ، وهي في حد ذاتها ثورة وتمرد وصرخة هرب ، ثم تلك المأساة التي يصورها بوجه مختلفة

- التتمة على الصفحة ٥٩ -

## مأساة الانسان في الحضارة الحديثة

- التتمة من الصفحة ٣

وأوان متفاوتة . ووراء ستارها ابدأ يقبع الانسان كالقط المبلل الخائف !

ولست تلك الفردية ولا هذه المأساة بأقل ظهروا في النصوص . منها في الأدب ومن المعروف ان الثورة الاصلية التي حققها التصوير في هذا القرن هي تحطيمه لفكرة المدارس الفنية وتحريره الفنان من سيطرة ابي مذهب ذي قوانين وتقاليد وتلاميذ . ليس من مدارس فنية ولكن جو محوم بالاساليب التي تتكاثر تبعاً لأمزجة الفنانين وللتيارات الغريبة التي تسوقهم إلي حيث لا غاية ! صحيح ان الينبوع الذي استقى منه الجميع هو الانطباعية : انطباعية ( مانيه ) و ( سيسلي ) و ( رنوار ) و ( ديكا ) ولكن التمرد بدأ منذ ( سيزان ) و ( فان غوغ ) و ( غوغان ) وهو اليوم أبعد من ان يكون واقفاً عند هؤلاء الذين ما أرادوا هم بدورهم ان يقف عندهم احد . لسبب بسيط هو أنهم ليسوا على يقين من شيء ! إن ميزة الفنان المعاصر انه في فيض شديد وخصب متزايد . قلبه طافح بالعواطف ودماعه يغلي بالفكار ويده المحمومة تصوغ اشكالا يرميها في العالم لتأخذ في العيش وتنمو حسب المنطق الجدلي الذي يختص بها والوسائل التي تتبها لها . ولكنها جميعاً ليست بانعكاس امين للواقع لانها تهرب منه الى عمارة التجريد الذاتي . هكذا يظهر التصوير العالمي اليوم فردياً متمرداً متجاوباً مع فردية الادب وصرخته . ولعل هذا لم يكف الفنانين للتعبير عن سخطهم على الواقع الفاجع فقاموا يعبرون بالاسلوب نفسه عن هربهم وعن ضيقهم بالكون الطبيعي ، وبالنظم الرتيبنة وبالعقل . إن الاسلوبين الشهيرين اللذين يضطرعان اليوم : التكعبي ، اسلوب بيكاسو وبراك من جهة ، والمتوحش اسلوب ماتيس وفلامينغ من جهة اخرى ، يلتقيان رغم صراعها في هذه التقطة وهي كرهها للواقع المنظم ! فيبيكاسو . مثلاً بهلوان هارب ! لا يرسم ما يرى بعينه ولكن ما تريده نفسه . إنه يحطم الشكل الخارجي الذي لا يعبر عن ذاتية الفنان ويعود فيبنييه من جديد خطوطاً ومواشير ورؤى وجرات ألوان متساوقة متنافرة في وقت معاً ! إنه ينشيء من ذلك عالماً آخرأ حرأ يخلص اليه من هذا العالم ، عالماً مجور التعبير فيه الفكر المجرد !

واما ( ماتيس ) بالمقابل فبالرغم من انه يرى ان الحساسية هي صاحبة الدور الاول في التعبير إلا إنه يرسم حسب ما تلميه عليه حواسه ومشاعره الخاصة ، فهو بدوره ايضاً يخلق عالمه من جديد ويحس به ويحبه . ويقول صاحبه فلامينغ : « إننا لا ننتج رسوماً ولكننا نصور رسوماً . إن التصوير فردي . . كالحب ! » ولعلنا نعجز الآن عن إيضاح ما تعنيه خطوط بيكاسو وأوان ماتيس وغيرهما من صراخ الألم ومن فزع ودم وشقاء ، ولكننا لن نعجز عن استخلاص فكرة واحدة منها هي ان التصوير الحديث يحمل على الاقل معنى عميقاً من معاني المأساة في هذا العصر .

وفي وسعنا إذا نحن تذكرنا تنهدات الكهان وصراخ البوق ان نقول مثل ذلك عن الموسيقى . . أجل فهي ايضاً تعيش المأساة الانسانية : وتعيشها منذ ( واغنر ) في القرن الماضي ومنذ ( ديوبسي ) ! ويجوم في خاطري هنا ( سترافنسكي ) كنجوية النسر ، ويقفز ( شونبرغ ) !

سترافنسكي ذلك السريالي البدائي الذي يفرض عليك جنون اللحن فرحاً : ضربات متوالية لا تدع لك من اعضاء تقاوم وهزة متتابعة يحاول ان يفرغ بها كل المأساة التي تدمى في ضميره . يحاول ان يعبر عن معنى شعوره بالقلق ويمطر العاطفة الانسانية ببذور سوداء من الرجفة والرعب . حتى في قطعه ( صلاة الربيع ) التي تبدأ بعبادة الارض وقدم الربيع وتختتم بالرقصة العذراء المقدسة ، حتى في هذه القطعة نجد الربيع يطلب ضحية بشرية ! إن الطبيعة لا تعطي إلا لتأخذ وإذا أعطت فرحة الربيع فلتأخذ الجمال ولتأخذ الشباب ولتأخذ المرح !

ويمثل ( شونبرغ ) ثورة اخرى . إنهم يدعونه تعبيرياً ويرون انه عض القيود وحطم حتى ال ( thème ) ولكن ما معنى هذا التحطيم ؟ وكيف قبله الناس إن لم يكن يتجاوب مع قدر هذا العصر ؟

وبعد فقد نتهم الفنانين اجمعين أنهم على مسافة واحدة من العبقرية او الجنون ، فلنلتمس سبيلاً أهدأ وأحسن منقلباً في الفلسفة ! ولكن اللعنة الفاجعة تلاحق الانسان في هذا الاق ايضاً ؟ . . مطاردة القدر ( لاوديب ) ! ولا يكفيني هنا ان أنقل كلمة من ( لونوبل ) عن هذا العصر ولعلي لا أنسى معنى ظهور الوجودية والفرويدية مثلاً . يقول ( لونوبل ) « لا شيء احسن كشفاً للحاجات الحقة والجراحات العميقة في عصر من

العلم هل ثمة ظل منها؟ إن رصانة العلم التي توحى بالثقة لم تمنع من ظهور نوع غريب من الخوف لدى العلماء المعاصرين . وإذا نحن اتهمنا الفنون بالهوس والفلسفة بلبس النظارات السود فماذا نقول بقلق العلماء؟

هذا اينشتاين ، صوفي العلم المعاصر ، يصرح انه « في المعركة المقبلة سيدهب ثلثا الجنس البشري » وهذا اوبنهايمر يصيح يوم تججير القنبلة الذرية ، صيحه الخنق : « لقد عرف العلماء طريق الحطية!! وهذا هارولد يوري ، حامل جائزة نوبل ومكتشف الهيدروجين الثقيل وأحد محققي القنبلة الذرية ، يقول في عبارات غريبة السراد : « اكتب لاخيفكم . انا نفسي خائف . كل العلماء الذين اعرفهم خائفون » . وينتهي بأن ينعث هذه الكرة الهائلة « مدار الحفاة » ... واخيراً هذا جان روستاند احد كبار العقليين والعلماء الانسانيين يكتب : « يكفي عدة علماء ليهبوا الانسانية قوة خارقة ولكن لا يكفيها بضعة عقلاء ليجعلوها جديرة باستخدام تلك القوة . لقد جعل منا العلم آلهة قبل ان نستحق ان نكون بشراً . سنتعلم تحرير الفعالية الذرية . وسنجول بين الكواكب وسنطيل من حياتنا ونبريء مسؤلنا ولكننا قد لا نجد وسيلة لان نحكم من قبل اكثر الناس جدارة بحكمنا !! » .

ولقد عاد العلماء ينظرون اليوم من جديد في ذلك المبدأ الذي اعلنه كلود برنارد بقوة فلم يجرؤ احد على مهاجمته ، ثم اكده هنري بوانكاريه كحقيقة نهائية في صفحة شهيرة ختم بها كتابه ( قيمة العلم ) : اعني مبدأ : العلم للعلم ! وليسوا بالقلائل الان اولئك الذين أخذوا ينكرون هذا المبدأ . وبينهم فيزيائيون عالميون أمثال لانغميور الامريكى واوليفانت الانكليزي عادوا يفتشون في العلم عن الشعور الانساني والضمير . ويرددون كلمة بيكون ورايمه « علم بلا ضمير ليس سوى تحطيم للروح » !

لعلي ، بعد هذه الجولة من افق الى افق استطعت او أوحى بهذه الهزة التي تعذب الضمير الانساني اليوم ، وعملاً جراحات وهيب عذاب . ويظهر اننا كلما ازدادنا تقدماً في الزمن ، إن لم يكن في الحضارة ، ازدادنا قلقاً بدل ان نزداد تفاؤلاً وثقة . فما السر في هذه المأساة؟

يخيل إلي ان ليس في الأمر من سر وإنما هي احداث تركض من حولنا وأسباب تخرج تحت انوفنا . وليست تلك الأحداث ببسيطة ولا بعارضة ؛ فكما اختلفت وجوه المأساة في الظهور

العصور من لعنة العفوية ومن المسائل التي يعرض لها . وهكذا يمكن للمرء ان يتأكد بسهولة من ان حاجة عصرنا المعذب هي حاجة للوجود . إننا حينما اتجهنا وجدنا وجودنا ، بقاءنا الخالص العميق ، مهدداً . إن قوى الجسد لا تكفي لحماية وجودنا . والفكر تكفنه تلك الهزات المزعجة في الحياة اليومية . إن الجماهير تهدد الشخصية من جهة بينما يخرق الفرد من جهة اخرى وحدة الحياة رداً على ذلك ، ليتحرر . إن زمننا هو زمن القلق الاعظم ، زمن الوجود المهدهد . ولم يلقف الخطر كل حياتنا الواقعية ولكنه نفذ الى اعماق الفكر المتيفيزيكي ! » .

ومن هنا نفهم لماذا تسمت الافكار الشائعة اليوم : ثرثرة على الألسن وفلسفة في رؤوس المفكرين وابتدالاً لا أبالياً على أرصفة باريس باسم ( الوجودية ) . إن اصطدام العقائد المتعارضة وانهارها ويأس الفكر من عالم عدوٍ مقيت أوجد في الناس ظمأً عنيفاً الى التمسك بالوجود قبل ان يضيع والى التساؤل عن هذا العالم كيف يمكن ان نعيش فيه ؟

وليست آلهة الصدف هي التي أوصلت الوجودية الى القول بالقلق الكئيب وبالأيأس . لقد قذف بالانسان في هذا التراب برغمه ، فهو مضطر للوجود . ووجوده هذا هو الذي يضعه بنفسه . ولما لم يكن هنالك من مبدأ او قاعدة يمكن ان يشترشدها في سلوكه فهو مرغم كل لحظة على الاختيار بين المسالك المتشابكة التي تعرض له وما أكثرها ! فاذا شعر بالقلق الكئيب فما ذلك إلا نتيجة لتلك المسؤولية الساحقة التي يحملها أمام ما يشكل عذابه وعظمته معاً : امام وجوده ! أليس يلخص الوجوديون في هذه الافكار البسيطة كل أساة العصر؟ اما ( فرويد ) فتسلل الى كل آفاق الفكر تسلل الظفر الدامي ! فوضع تجاه الانسان العاقل المتسامي ، الانسان - الحيوان ، الانسان - الحشرة ! ويعتبر الناس الغريزة الجنسية أدنى الغرائز فيأتي فرويد ليجعلها ملهمة البشر وسيدة كل تصرفات الانسان . فسواء نسيت رسالة على منضدة أو أبدعت مثل ( واغتر ) بارسيفال فمعددة أوديب الجنسية هي التي تسيروك ! ولست أعرض لما في مذهب فرويد من الحق والخطل ولكني إنما اريد ان ترى معي ما فيه من سحق الانسان لذاته ومن كرهه حتى لنفسه ومن إجساسه الفاجع البشع بالعبودية والحيوانية !

ويطول بنا الأمر لو نحن تتبعنا هذه التشاؤمية المسومة - اللذيذة معاً في الفكر الفلسفي الحديث ، فدعونا ننظر في رحاب

فهي كذلك مختلفة في منابع السود . وإذا كان لها أصابع الأخطبوط التي تتهصر كل نواحي الفكر فلها بالمقابل منابت كجذور الكروم بعيدة ومستحكمة !

على انني احسب ان في الرسع تلخيصها ، رغم تعقدها وارتيابها في ثلاث فكر :

أولاً- فشل الفكر الحديث ، في مختلف مجالاته . فلقد فشل العلم وهو الركن الاول في الحضارة الحديثة . فهو لم يستطع ان يحل مشاكل الانسان إن لم يكن زادها . ولقد منحنا العلم في القرن الماضي تفاقواً حسب الناس معه ان النجوم في قبضة أكفهم وسيلعب بها الاطفال في المستقبل ، ولكن سرعان ما هدم العلم نفسه بنفسه منذ حاول ان يفهم ويفسر بدل ان يربط ويقن ! فلا العقل الذي يعتمد عليه بالآلة التي لا تخطئ ولا المنطق الارسطاطاليسي الذي يعتمد عليه ، بالمنطق الوحيد ، ولا الزمان والمكان اللذين يقيسهما بأمرين واقعيين ، ولا الحوادث التي يقطعها من الحياة بخالية من الاصطناع . ثم إن الآراء الحديثة في بنية المادة قد اكدت بعد نظرياتنا عن الواقع . ذلك ان كل قياس دقيق للظواهر الأولية الذرية قد اصبح مستحيلًا استحالة نهائية . بمعنى ان مبدأ التقييد العلمي يجب ان يستبدل به مبدأ عدم التقييد ! ولا يبدو أصلد القوانين العلمية اليوم اكثر من مجرد احتمال !

ولقد فشل الفكر ايضاً في الفلسفة ، وتلك المفاهيم المبسطة التي نظم على اساسها المعرفة منذ كانت وهيغل اذجت اليوم مقولات جامدة ثقيلة ، هراها العث . فلا العقل موزع بقسط ثابت بين الناس ولا هو وجد منذ وجد ، بشكله القائم دون تطور . عدا ان جزءاً كبيراً من مقولاته قد نقض وقفز الناس وراءها ...

وليسك الغلطة في النتائج التي وصل اليها فحسب ، ولكنها في الطريقة ايضاً . إنها غلطة غالبه الذي فرق بين الكمي والكيفي ودعا ، مع انتصار نظارته ، الى هجر الكيفي المعقد الذي لا يقاس والاكتفاء بالكمي ... وتلاه بيبكون فجاء بتجريبته الهزيلة وباستقرائه المبسط ، ثم وضع ديكارت الخط النهائي في ذلك الاتجاه بتلك الثنوية التي فكر فيها بين الفكر والجسد ، بين ما هو روح وما هو مادة !! وتم النصر اخيراً لما وجد العلم الآلة : معجزة الرفاه المادي عند الناس !

لكن تناسي المشكلة لا يكفي لتلاشيها وتعقدها ليس عذراً لحذفها . وهذه الغلطة في الطريقة التي قادت العلم اول الامر الى

المجد دفعت هي نفسها الانسان الى التلاشي والأضباع ثم عادت فقتلت العلم الذي أوجده . . . وهل بإمكان احد ان يؤمن ان الانسان هو فقط هذا الهيكل العضوي المتحرك ؟ إذا لم أكن أنا غير هذه الامصال الدموية والاعصاب الفيزيولوجية وذلك التوازن الكيماوي - الفيزيائي في الخلايا والبروتوبلازما ، فأين إذن قلقي وفرحي وابن حبي وإرادتي وأين اندفاعي في المصير؟ وإذا كانت اشعة المغيب هي فقط موجات كهربيسية ، فمن اين هبط إذن ذلك الجمال الذي يراه الفنان في ألوان المغيب ؟ وإن كانت ألحان الوتر موجات تنداح كما تنداح الدوائر على صفحة الماء ، فلم تهتر أنت وأهتر انا لالحان الوتر ؟ .

لقد تلفت الانسان اليوم فاذا بكل الذي بناه حطام وعليه ان يعاود البناء من جديد ! كذلك المسكين سيسيفوس في الاسطورة اليونانية قضت عليه الآلهة ان يحمل الصخرة الى أعلى الجبل لكنها قضت في الوقت نفسه بان تزلق من يديه كلما شارب بها القمة ...

ثانياً - فشل القيم ... أجل فقد فشلت القيم بدورها في هذا العصر .

فشلت القيم الدينية الخالصة . وما أدري إذا كانت كلمة برونشنيك تكفي في تبيان هذه النقطة حين يقول في كتابه ( تقدم الوعي ) : « إن أقوى حجة توجه الى كل دين إيجابي هي ان المؤمنين به يستحيل عليهم ان يقدموا مضموناً ذهنياً محددًا لحالات انفعالية محترمة » . والواقع ان القيم الدينية تأخذ بوضوح الشكل الذاتي الخاص وتنكمش الى زوايا المعابد . ولا يستطيع حتى أبعد انصارها حماسة أن ينتقل بها من ميدان الفعالة الايمانية الى مجال الحقيقة النهائية !

وفشلت القيم الخلقية ايضاً ، فقد اضحينا نعرف ان مبادئ الأخلاق ليست مستلهمة من مثل عليا لا تتزحزح ولكنها وقائع نفسية او تاريخية او اجتماعية متطورة متقلبة ، ثم إن قيمها نسبية ، نسبية حتى لتوف رفيف جناح الطائر لكل ربيع ! وقد رافق هذا النفي لكل نظرية عقلية في السلوك اتجاه نحو رومانتيكية جديدة تتبع دوستويفسكي وكير كغارو ولا تشق طريقها نحو السلام إلا فيما وراء الأمانة والعدل والواجب وإلا خلال اليأس والقلق !

وفشلت القيم في نصب مثل عليا للناس ؛ فأفكار الانسانية الواحدة والتقدم المستمر والمدنية ... الخ ، كانت تتناسب مع

الوضع العقلي البارد الذي أندفع فيه الناس في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي تلاه. أما اليوم فإن الشك يقرض ضميرنا قرصاً حين نسأل أنفسنا : فيم ولين نعمل ؟ . وأستطيع هنا ان أذكر على سبيل المقارنة تلك « الحضارات السعيدة » كما يدعواها جاك ماريبتان لليونان القديمة وفرنسا البيضاء وللشرق العربي الاسلامي ، وأقول إنها كانت أكثر نجاحاً في فهم الانسان ومنحه الطمأنينة . وقد كانت مؤسسات العائلة والدين والملكية الفردية أكثر قرباً الى قلب الانسان من النظم الحاضرة !

وأسارع الى القول إنني لا ابكي بالطبع على تلك المؤسسات المنهارة ولا اتفجع ، فأنا اعلم ان الضرورة التي أوجدتها هي نفسها التي نقضتها ، فما كان أي عمل إنساني في يوم من الأيام سوى مرحلة انتقال الى عمل آخر يليه أو يسمو عليه ، ثم إنني لست أدعو للرجعة - وأنا اعلم انها عقيم - إذا قلت إن الحضارات الأولى والدينية منها خاصة كانت أكثر إسعاداً للانسان من الحضارة القائمة . ولكنني اهفو إلى حضارة أخرى مقبلة تجعل همها توفير سعادة أعمق من تلك السعادة الاولى واعنف . وأنطلق إلى حل لمشكلة الانسان ليس من الضروري ان يكون حلاً دينياً لأن مثل هذا الحل لم يعد كافياً وليس من الضروري ان يكون حلاً نهائياً لأن الحقيقة حية وجدلية ولكن يجب فقط ألا يضحى فيه بشيء مما كسبه الانسان حتى اليوم !

ثالثاً - نسيت الحضارة الحديثة الانسان وأساءت فهمه ! صحيح ان الحضارة الحديثة ابتدأت سيرها بإيقاظ الفردية في الانسان ! كان مجتمع القرون الوسطى يريد الناس على ان يكونوا نسخاً واحدة خانعة ، قطعياً تتساوى فيه كل الرؤوس ، وكانت الهمة الاولى في الحضارة الحديثة بعث الانسان - الفرد ، وصحيح ايضاً ان هذا الانسان تمرد على كل شيء إذ ذاك حتى على الدين ولقد جرؤ مسيو كلود ان يقول لبوسويه مرة وقد سأله :

- إلى اي مدى تصل تلك الحرية التي يطالب بها السادة دعاة الكنيسة المجددة . أليس لها حدود ؟ أكل فرد إذن ، كل امرأة ، كل جاهل معها كان يستطيع ان يعتقد ويجب ان يعتقد انه يدرك كلمة الله أكثر من مجمع بأجمعه ولو اجتمع من جهات العالم الاربع ؟ !

أقول : جرؤ مسيو كلود ان يجيبه منذ القرن السابع عشر : اجل إنه كذلك !

وصحيح ايضاً ان كل العلوم حامت حول الانسان وان الحياة السياسية قد سارت في الاطار نفسه فانتقلت أوروبا من الاقطاعية إلى البورجوازية إلى الحكم الشعبي الواسع . من حلقة ضيقة من الحكم إلى اوسع منها في اوسع ، وكل المشاريع اليوم تهدف إلى تأمين اكبر قدر من العدالة الاجتماعية ومن الرفاه البشري . صحيح كل ذلك ولكنها حضارة الجماهير ، هذه الحضارة ، لا حضارة الفرد . لقد تحولت بسرعة من الاهتمام بالكيفية إلى الاهتمام بالكمية ، وضحت بالحرية لحساب المساواة ونظرت الى جميع البشرية ككتلة متشابهة عاجتها بسداحة مبسطة غريبة وبكلمة واحدة : اهملت الانسان - الفرد وعادت لفكرة القطيع . أليس هذا ما تفهمه اليوم المذاهب الجموعية ، كالماركسية والديمقراطية مثلاً من الانسانية ؟

ثم إن هذه الحضارة أساءت فهم الانسان . (لقد ظننت ان « وضعية » كونت قدر نهائي ، وان الحيوانية التي رمى بها دارون الانسان ستبقى وصمة أبدية في جبينه كوصمة العبيد ايام الرومان . ففهمته على انه جسد فحسب ، ولست انكر انها في هذا السبيل قد استطاعت ان تقدم له الكثير من الرفاه العضوي ومن راحة الخلايا والنسيج والعظام ، ولكن أين راحة القلب والروح ؟ « إن أحلامنا ومشاعرنا ليست أقل حقيقة من معدنا . والفرح والالم هما نفس شأن الشمس والقمر بالنسبة اليينا . وعالم دانتي وبرغسون اوسع بكثير من عالم كلود برنارد وبايبنت ! إن عالم المادة الجامدة رغم اتساقه وسهولته وجماله ( او لذلك كله ) أضيق من ان يتسع للانسان ويدخله في مفاهيمه . إن الانسان كائن حي في الوقت الذي هو فيه شيء مادي وهو منبع فعاليات بقدر ما هو خاضع لميكانيك العضلة . إن الانسان الذي بدأ يفهم نفسه هو الذي يتألم اليوم .

★

وبعد ! فان عصر ( غوته ) الذي طلب وهو غلى فراش الموت أكثر فأكثر من النور قد انتهى ، وفاوست الذي كان يريد ان يعرف كل شيء بأي ثمن ، اصبح في ذمة التاريخ ... مات ومات معه مفيدستو ! اما إنسان اليوم فهو ( هملت ) الذي استوت عنده جميع القيم والحدود فما يدري ابن الطريق ؟ وهنأ مأساته الكبرى !

أتكون هذه المأساة يا ترى إرهاباً لفاوست جديد ؟ لما فوق فاوست Super-Faust ؟

شاكر مصطفى

دمشق